الحلم

اشتهر معاوية بعد الدهاء بالحلم، وأجمع مؤرخوه من مادحيه علي وصفه بهاتين الصفتين. وقد أفرد ابن أبي الدنيا وأبوبكر بن عاصم تصنيفاً في حلمهوقال قبيصة ابن جابر: «صحبت معاوية فما رأيت رجلاً أثقل حلماً ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أناة منه» وردد المؤرخون كلمة قبيصة هذه وزادوا عليها كلمات بمعناه لغيره من عشرائه ورواة أخباره.

ولم يفجر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه.. كان يفاخر خاصته بالدهاء بينه وبينهم، ولكنه لم يفخر قط بالدهاء علانية كما كان يفخر بالحلم والأناة، ولا غرابة في ذلك من جميع الوجوه. فما من رجل علي نصيب من الدهاء يعلن دهاءه ويفخر به وهو يستطيع أن يخفيه ويموهه بالنصيحة والصراحة، ومن صنع ذلك فهو كالصائد الذي يكشف حبالته للقنيصة وهي خليقة ألا تقع فيها إذا انكشفت لعينها.

ووجه آخر من وجوه الجهر بالحلم وتذكير الناس به عند معاوية أنه كان حريصا علي التجنب إلي الناس، لأنه ينتزع سلطانه ويعلم أن الناس لا ينطوون علي الحب لمن ينتزع السلطان. إن لم يكن نخوة وأنفة فحسداً وغيرة، أو اعراضاًعن الغاضب إلى ماهو أولى بالسلطان في رأى أصحاب هذا الرأي وإقبالاً علي مستحقه عندهم بغير نزاع.

سئل: «رأي الناس أحب إليك؟ قال: أشدهم تحبيباً لي إلي الناس» وغني عن القول أن الصفح عن المسيء مع القدرة علي البطش به من أقرب الوسائل الي كسب ولائه وكسب ولاء غيره ممن يسمع بالخبر ويحمده، ولم يكن معاوية ولا شيعته يقصرون في إذاعة كل خبر فيه مأثره من مآثر العفو والأناة والبر بكل مسيء أولئك الذين كانوا يتطاولون عليه بالمساءة في أول عهده بالملك علي الخصوص، ولم يكن عدد هؤلاء المسيئين بالقليل..

كان يقول: إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوى، وجهل أكبر من حلمي، وعورة لا أواريها بستري، وإساءة أكثر من إحساني.

وكان يقول في مجالسه: «لو أن بيني وبين الناس شعرة ماانقطعت»، وسأله بعضهم:

كيف ذلك؟ فقال: «كنت إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها»..

وخطب يوماً فقال: «والله لا أحسن السيف علي من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا مايستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر[1] أذني وتحت قدمي».. وحدُّ الحلم عنده ألا يكون في العدوان والتطاول مساس بملكه وسلطانه. أغلظ له رجل فأكثر، فقيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال: إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا».

ووجه آخر غير هذه الوجوه كان من دواعي اللهج عند معاوية بفضيلة الحلم قبل غيرها من الفضائل التي كان في وسعه أن يلهج بها كالعطاء والتدبير وعلو الهمة وما الي ذلك من المناقب التي يسلم له بها الأنصار ولا يجحدها كثير من الخصوم.

كان الحلم دعاية سياسية في خصومته مع علي بن أبي طالب بما اشتهر به من فضائل الشجاعة والأمانة والتقوي.

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمة العربية، ومانحسبها غالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقرينه «الحكمة».

وربما مدحو ا الكرام والشجاعة فأكثروا في مديحها إكثارهم في القول المعاد من قبيل تحصيل الحاصل..

فأما الحلم فقد كانوا يغالون في الثناء عليه، لأنه محمدة يطلبونها في الرؤساء ولا تجري مجري الصفات المبذولة لسائر المتصفين، ولما اختلف علي ومعاوية لم يكن أحد ينكر علي عليٍّ شجاعته وتقواه وسابقته الي الإسلام وقرابته من رسول الله، فإذا شاء معاوية أن يوازيه بصفة من صفات الرئاسة، فتلك هي الحلم دون غيره، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأي والحلم والحزم، وأن عليًّا صاحب الشجاعة والصلاح وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعني علي ألسنة الدعاة من حزب معاوية، وكاذ أن يقلبها الناقدون لعلي من حزبه لاشتداده في الحق الذي لا مثنوية فيه، وأمسك معاوية علي كل لجاجة في أمر التقوي والصلاح ليقول كلما نافس عليًّا وأبنه الحسن: إن لم أكن خيركم فأنا خيركم لدنياكم.

---

[1] مزلقة: أرض لا تثبت عليها قدم.

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل التحبب الي الناس، ووسيلة من وسائل الدعاية السياسية يعزز بها حجته ولا يستطيع أن يفخر بصفة غيرها في مقام المفاصلة بينه وبين الرجل الذي سلم له المنصف والمكابر بفضيلة الشجاعة وفضيلة التقوي.

لا جرم كان في أخبار حلمه إفراط ومجازة للمألوف من أمثاله، وكان من أهله من يثور لإفراطه هذا، ويحس الهوان في عزته لما يحتمله صاحب الأمر كله في دولتهم من الجرأة عليه وعليهم، وكان يزيد – ابنه وولي عهده – أشد هؤلاء الثائرين سخطاً علي أبيه، يقول له كلما راجعه: «أخاف أن يعد ذلك منك شعفاً وجبناً».. فيقول له: "أى بني !إنه لايكون مع الحلم ندامة ولا مذمة، فامض لشأنك ودعني ورأيي".

وقد يعزي غضب يزيد من ذلك الحلم «المفرط» إلي سورة [1] الشباب وحب الاستطالة[2] بالعزة والسؤدد علي عادة أترابه وأنداده، ولكن الرأي بين آل بيته «المحنكين» أنه كان يبالغ في احتمال الأذي والصبر علي المساءة، وكان رجل في حنكة عبدالملك بن مروان يسمي ذلك منه دهاناً كما قال في بعض خطبه: "أما أنا بالخليفة المستضعف – يعني عثمان – وما أنا بالخليفة المداهن ٠ – يعني معاوية – وما أنا بالخليفة المأمون – يعني يزيد".

ومما يدل علي أن الفخر بالحلم دخل في دعاية الخصومة بين معاوية وعلي خاصة: أننا لا نسمع به بعد تأسيس الدولة ولايفخر به أحد من الأمويين غير الفرع المؤسس لدولتهم في إبان النزاع الأول علي الخلافة.

فالمعلوم أن بني أمية فرعان: فرع حرب، وفرع أبي العاص، وإلي حرب ينتمي أبوسفيان وابنه معاوية، وإلي أبي العاص ينتمي مروان بن الحكم ومن خلفه من ذريته، وفي مقدمتهم ابنه عبدالملك وحفيده سليمان بن عبدالملك.

***

فالمفاخرة بالحلم إنما كانت تجري علي لسان معاوية، ولم تجر بعده علي لسان

---

[1] سورة: بالفتح: الحدة والشدة.

[2] الاستطالة: استطال على القوم: رفع نفسه عليهم وغلبهم وقهرهم

المراونيين حين تأست الدولة الأموية واستغني القائمون بها عن مقابلة فضائل علي بن أبي طالب بفضائل «سياسية» يرجحون بها أنفسهم في ميزان الخصومة.

كان معاوية يقول: ذا لم يكن الأموي حليماً فقد فارق أصله وخالف آباه..

وكان يقول: «يابني أمية !فارقوا قديشاً بالحلم. فو الله لقد كنت ألقي الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعه حلماً فأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده إلا كرماً».

وكان المتقربون إليه يذكرونه حلم أبي سفيان إذا أنكروا منه سورة النقمة والغضب. وقيل له بعد مقتل حجر بن عدي: أين غاب عنكم حلم أبي سفيان؟ فكان يقول: حيث غاب عني حلماء قومي وحملني ابن سمية فاحتملت. وقال للسيدة عائشة حين سألته مثل هذا السؤال: لم يكن معط رشيد..

ولاشك أن معاوية قد أقام فخره بالحلم علي سمعة قديمة في بيته بين بيوت بني أمية، لأن هذا الفقر لايخلق بين يوم وليلة في البلاد العربية التي تذكر وراثاتها وتعيدها ولا تخاطب بها من يجهلها، ومن المشهور أن حربين أمية أصلح بين قريش وهوزان في حرب الفجار الثانية بعد اقتتال يسير، وأن ابنه سفيان كان يتأني ولا يتهجم في خصومات الجاهلية وخصومات الاسلام، ولا يمتنع مع هذا كله أن يكون الفخر بالحلم من دعايته السياسية عند تأسيس الدولة والحاجة اليه في المفاضلة بين المتنازعين بمناقب الحكم والرئاسة، وقد سكت عنه الأمويون علي عهد الفرع الآخر منهم - وهو فرع المروانية - لأنهم لم يحتاجوا اليه في منازعاتهم، بل كان منهم من يفخر بالفتك ويسرع الي الغضب ويرهب المخالفين له بسرعة البادرة اليه.

والوقائع - بعد - أصدق من إطراء المادح وغمز القادح، فإنها قد تمتزج بالكذب عمداً أو علي غير عمد، ولكنها في كثير من الأحوال تنقض كلام قائلها إذا عرضت علي التمخيض[1] والتحليل فيسوقها للمدح وهي منظومة علي دخيلة تبطل مديحة المقصود، أو يسوقها للقدح وماتنطوي عليه آية من آيات الثناء والمديح.

---

[1] التمحيص: محص فلان الشيء: خلصه من كل عيب.

والوقائع التي رويت عن حلم معاوية متواترة متكررة، تتفق فيها الكلمات أحياناً ويختلف فيها القائلون والرواة، أو يتفق فيها هؤلاء جميعا بغير اختلاف كبير، وهكذا معظم الوقائع التي رويت عن أعلام ذلك الجيل ومابعده، فلابد فيها من حساب للمبالغة وحساب للترجيح والتصحيح بالمقارنة والمضاهاة[1] وليست كل هذه الوقائع - مع ذلك - بصالحة للاستدلال بها علي حلم معاوية ولو بعد ثبوتها باختلاف أو بغير إختلاف.

فمنها ماتعرض فيه للإساءة مستدعياً لها في مجال التبسط والمزاح، والعالم الإسلامي لم يتعود بعد طغيان الملك، ولم يتعود ملوكه أن يسوموا الناس الصبر علي مايكرهون ولا يترقبوا منهم در الكلام بمثله في كل مقام..

قدم جارية بن قدامة السعدي عليه فقال: كم أنت؟ قال: جارية بن قدامة. قال: وماعست أن تكون؟ هل أنت نحلة؟ قال: لا قل. فإنما شبهتني بها حامية اللسعة حلوة البصاق. والله ما معاوية رلا كلبة تعاوي[2] الكلاب وما أمية إلا تصغير أمة!

ورويت هذه القصة علي رواية أخري، فقيل: إن معاوية بادره قائلاً:

«أنت الساعي مع علي بن أبي طالب والموقد النار في شُعَل - جمع شعلة - تجوس قري عربية لتسفك دماءهم؟ فقال جارية: يامعاوية، دع عنك عليًّا فما أبغضنا عليًّا منذ أحببناه ولا غششناه منذ صحبناه. فقال له معاوية: ويحك يا جارية !ماكان أهونك علي أهلك إذ سموك جارية، لا أم لك ..!قال جارية: أم ما ولدتني. إن قوائم السيوف التي لقيناك بها بصفين في أيدينا.. إنك لم تملكنا قسرة ولم تفتتحنا عنوة، ولكن أعطيتنا عه، داً ومواثيق فإن وفيت لنا وفينا وإن ترغب إلي غير ذلك فقد تركنا ورءنا رجالاً مداداً[3] وأذرعاً شداداً، وأسنة حداداً. فإن بسطت إلينا فتراً من غدر دلفنا إليك بباع من ختر.. قال معاوية: لا أكثر الله في الناس من أمثالك.

---

[1] المضاهاة: الموازنة والمقارنة.

[2] تعاوي: عاوى الكلاب: صايحها، وعوى مثلها.

[3] مدادًا: جمع مديد أي: طويل.

وما نظن معاوية كان مخاطباً بذلك الخطاب رجلاً يوصف في عصرنا هذا بأنه من «آكلي النار» ثم لايترقب منه جواباً ولعله كان يرضيه أن يسمع منه تسليماً واستكانة فيطمئن إلى غلبته ورسوخ سلطانه ولكنه - ولا ريب - لم يغب عن ذهنه أنت جارية أهل لأإن يسمعه ماسمع، وأ, يطرقه بتلك الطرافة اللاذعة التي لا يأباها كثير من الناس، وهط طرافة الجواب السريع المتوقع ممن يحسن رد الكلام بمثله في هذا المقام..

ومن الجواب المستدعي - أو المستثار - قول خريم بن فاتك وقد دخل علي معاوية مشمراً مئزره، فقال له: «لو كانت هاتان الساقان لامرأة؟ ».

وكان معاوية عظيم الأليتين يهجي فقال فيه: إنه الجاحظ العين العظيم الحاوية[1] فما عتّم[2] خريم أن إجابه قائلاً: «في مثل عجيزتك[3] يا أمير المؤمنين» .!

وأشبه بهذا المقام حواره مع الزرفاء بنت عدي خطيبة صفين حين ذكرت في مجلسه بعد سنوات فأرسل إليها يستدعيها. فقالت للرسول: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لي فإني لا أذهب، فلما شدوا عليها في الذهاب دخلت المجلس وفيه عتبة بن أبي سفيان، والوليد، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، فهش لها ورحب بها، ثم سألها: أتدرين فيم بعثت إليك؟

قالت: وأنَّي لي بعلم ما لم أعلم.. لا يعلم الغيب إلا الله..

فسكت هنيهة ثم قال: ألست أنت الراكبة الجمل الأحمر في صفين تحضين الناس بين الصفين علي القتال؟

قالت: نعم ..!

قال: فما حملك علي ذلك؟

قالت: ياأمير المؤمنين. مات الرأس وبتر الذنب، ولن يعود ماذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

---

[1] الحاوية: الأمعاء.

[2] عتم: يقال: ما عتم أن فعل كذا، أي: ما لبث وما بطأ.

[3] العجيزة: العجز: هو ما بين الوركين، والمؤخرة.

قال: صدقت: أتحفظين كلامك يومئذ؟

قالت: لا والله، أنسيته.

قال: لكني أحفظه، والله أبوك حين تقولين: «أيها الناس !ارعوا وارجعوا إنكم أصبحتم في فتنة، غشيتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيالها فتنة عمياء، صماء، بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لقائدها، إن المصباح لايضيء في الشمس، والكواكب لاتنير مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد».

واسترسل في قول الرواة يعيد عليها كلاما إلي أن قال:

-والله يازرقاء.. لقد شركت عليًا في كل دم سفكه.

قالت: أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك، فمثلك بشر بخير وسر جليسه.

قال: أو يسرك ذلك؟

قالت: نعم..

قال معاوية: والله لوفاؤكم بعد موته أعجب إليَّ من حبكم في حياته، اذكري حاجتك..

قالت: يا أمير المؤمنين آليت علي نفسي لا أسألن أميراً أعنت عليه أبداً..

ولكنه علي هذا أجزل لها العطاء وأرضاها.

وجاءته بكارة الهلالية بالمدينة، وقد أسنت وغشي[1] بصرها، فسلمت وجلست، فرد عليها السلام وقال: كيف أنت ياخالة؟

فقالت: بخير ياأمير المؤنين. قال: غيَّرك الدهر. قالت: كذلك هو ذو غير، ومن عاش كبر، ومن مات قبر.

قال عمر بن العاص: هي والله القائلة ياأمير المؤمنين:

يازيد دونك فاحتضر من دارنا

سيفاً حساماً في التراب دفينا

قد كنت أدخره ليوم كريهة

---

[1] غشي بصرها: أظلم.

فاليوم أبرزه الزمان مصوناً

وقال مروان: هي والله القائلة ياأمير المؤمنين:

أتري ابن هند للخلافة ملكاً
هيهات ..!ذاك وإن أراد بعيد
منَّتك نفسك في الخلاء ضلالة
أغراك عمرو – للشقا – وسعيد

وقال سعيد بن العاص: هي والله القائلة:

فالله أخَّر مدتي فتطاولت
حتي رأيت من الزمان عجائباً
في كل يوم للزمان خطيبهم
بيع الجميع لآل أحمد عغاتباً

فقالت بكارة: نبحتنى كلابك ياأمير المؤمنين.. وأنا والله قائلة ماقالوا، لا أدفع ذلك بتكذيب، وماخفي عليك مني أكثر، فامض لشأنك، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين.

فضحك معاوية وقال: ليس يمنعنا ذلك من برك. اذكري حاجتك، قالت: أما الآن فلا..

ويتمُّ الرواة روايتهم فيقولون إنه قضي حوائجها وردَّا إلي بلدها..

***

ولا مخالفة للمعهود في ازدلاف[1] المزدلفين لصاحب الأمر بالوقوع في خصمه بمحضر ممن يكره ذلك من خاصة أهله، فإن نجا المزدلف بزلفاه فقد رضي وأرضي، وإن أصيب كما أصاب فليست كل كلمة يزجيها[2] الملقي في مجلس الأمير مستحقة من ذلك الأمير أن يشتريها بالثمن الذي يعنته ولا تطيقه دولته في مطلعها، وقد ازدلف إليه

---

[1] ازدلف: دنا وتقرب.

[2] يزجيها: أزجى الشيء وزجاه: دفعه برفق

الكثيرون فسلموا، وازدلف إليه غيرهم فأصيبوا بحق لا يمتري[1] فيه عربيان يؤمنان بحق الجواب كما يؤمن به سائر العرب،

ولا يمتري فيه مسلمان يؤمنان بالحق حيث كان، وأظهره رد العدوان في غير داعية للعدوان.

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب، وأمه بنت علي أم كلثوم. فنال بسر بن أرطأة من الإمام، فما أمهله زيد أن قام إليه فعلاه بالعصا وشج رأسه. فلم يزد معاوية على أن قال لزيد: عمدت إلى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته؟ ثم التفت إلى بسر فقال: تشتم عليّا على رءوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر على ذلك؟ !

وكل أولئك شبيه أن يكون: بسر بن أرطأة قاتل طفلين باليمن لعبيد الله بن عباس ينال من علي في حضرة معاوية، وزيد بن الفاروق لا يشبه أباه إن صبر على ثلب[2] جده في مكان حيث كان، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر أن مضت في سبيلها، ولكنه لا يبطش بزيد أن غضب لجده وأصاب السفيه بجريرة سفاهته، ولا تساوي تلك السفاهة أن يشتريها بالنكال الذي تعود عليه اللائمة فيه ولا تعود عليه منه زيادة في ملكه، وكل أولئك -كما أسلفنا - شبيه أن يكون، فلا يحسبه أحد في ذلك العصر من حلم معاوية، بل يحسبه من جبن زيد إن لم يصنع ما صنع بابن أرطأة.

وإن الأشبه الصدق في جملة تلك الروايات أن معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هذه الاستثارة؛ لأنها تمتعه بذكرى الشدائد التي تخطاها بعد فوات الغاشية[3] وتريحه إلى لقاء خصومه وهم في كنفه ينظرون إليه في مستقر نجاحه وظفره، ولا يضيرونه بقولة يقولونها لا تحول بينه وبين ملكه كما قال..

وغير بعيد أنه كان يترك جلساءه يتحرشون بذوي اللسن من العلويين ليضحك مما يناله كما يفعل ذوو السلطان في كل زمن وكل أمة، فربما كانت سخريتهم بالأنصار أمتع

---

[1] يمتري: يشك.

[2] ثلب: سب وشتم.

[3] الغاشية: الداهية والقيامة.

لهم من صد الخصوم، وقد يطلقون بعضهم على بعض ليسخروا منهم جميع إن لن يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين.

وقد اجتمع من سجال[1] بني هاشم وخصومهم في مجلسه ما ينعقد به سجل خاص في مأثورات الحوار في كل مقام، ويصحح وقوعه في رأينا أنه لو حدث لما أمكن حدوثه على غير ذلك النمط الذي تناقله الرواة.

أناس من ذوي السلطان المحدث يعلمون هوان أقدارهم مع بني هاشم وآل النبي وصفوة قريش، ويلذ لهم أن ينعموا بالسلطان وأن «يجتروا» تلك النعمة حيثما وسعهم اجترارها في حضرة وليهم وعلى مسمع من السادة الأعلين الذين غلبوا على ذلك السلطان، وأن ولي الأمر نفسه ليحب ذلك ولكنه يعلم أنه مركب غير مأمون، وأن الموتورين إذا سمعوا ما يكرهون فردوه بمثله فما في وسعه أن يواجه العالم الإسلامي كل يوم بشهيد من آل البيت.. فسبيله أن يصطنع المخالفة لجلسائه، وأن يحذرهم مغبة اللهو بهذه الملهاة، ولا أمان فيها من لسن القوم وأنفتهم التي لم تخذلهم قط في مقام المناظرة والتحدي من زمن قديم. فإن أصيب جلساؤه فعليهم وزر عملهم، وليس لهم أن يطلبوه بالاقتصاص لهم من أمر قد اختاروه على خلاف رأيه، وإن سلم أولئك الجلساء فقد شفوا صدوره من أولئك الموتورين.

وتكاد القصص مع بني هاشم في مجلس معاوية تجري كلها على وتيرة واحدة: رجل من آل البيت يدعي إلى المجلس أو يأتي إليه في أمر من أموره فيغري به جليس من الحاشية يتحرش به ويستثير فيجاب بما هو أهله.

ويتغاصب معاوية على الجليس فيلومه إذا بلغ الجدال والمحال[2] فصل المقال، وما نرى أن الملهاة كلها كانت مدبرة لكي تنته إلى خاتمة أخطر من هذه الخاتمة. وماذا عليهم إذا استطال الموتورون بالمقال وهم يستطيلون بالسلطان؟

***

---

[1] سجال: ساجل فلان صاحبه: عارضه وباراه وفاخره وصنع مثل صنيعه.

[2] المحال: الكيد والمكر والجدال

إلا أن حديثًا واحدًا من أحاديث بني هاشم يخالف هذا النمط ولا يستقيم مع سائر هذه الأحاديث من أحاديث بن هاشم يخالف هذا النط ولا يستقيم مع سائر هذه الأحاديث. فلم يكن البادئون به من جلساء معاوية، ولا من آل البيت، ولكن البادئ به معاوية نفسه على نحو لا يشبه طريقته المأثورة من التقية[1] والمداراة، وليس فيه نفع له في شأن من شئون الملك أو خاصة من خواص أمره تستوجب ذلك الحديث.

قيل: إنه تحدث إلى ابن عباس، فقال له، إن في نفسي منكم لحزازات[2] يا بني هاشم. وإني لخليق أن أدرك فيكم الثأر وأنفي العار. فإن دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم، فقال له ابن عباس: والله إن رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليم أسدًا مخدرة وأفاعي مطرقة، لا يفثأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم ويضربون قدمًا قدمًا من ماوأهم.

إلى أن قال في رواية الرواة: « فلتكونن منهن بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك.

. ولولا طغام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وبذلوا دونك مهجهم.. ورفعوا المصاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها لكنت شو مطروحا بالعراء.. وما أقول هذا لأصرفك عن عزيمتك، ولا لأزيلك عن معقود نيتك ، ولكنها الرحم تعطف عليم، والأواصر توجب صرف النصيحة إليك. فقال معاوية: لله درك يا بن عباس. ما تكشفت الأيام منك إلا عن سيف صقيل ورأي أصيل. والله لو لم يلد بنو هاشم غيرك لما نقص عددهم ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم.

***

وإن دواعي الشك في مثل هذا الحديث لكثيرة، لولا أن التلفيق فيه أعسر من أن يتاح لكل راوية يضع الكلام على كل لسان، ولا يبالي أين موضعه من القائل والمجيب.

فإن كان معاوية قائلا مثل ذلك المقال لأحد من بني هاشم، فإنما يقوله لعبد الله بن

---

[1] التقية: إظهار الموافقة وإضمار نقيضها.

[2] حزازات: الحزازة بفتح الحاء: وجع في القلب من غيظ ونحوه

عباس دون غيره، فإنه حديث داهية يسبر[1] به غور داهية يقارنه من بيت خصومه، وإنه مع ذلك قرين تجمعه آصرة القرابة بآل علي، ولا تجمعه بهم آصرة المودة والموافقة جد الموافقة على الواجهة ,وقد تخلى ابن عباس عن ولاية ابن أبي طالب ووقعت بينهما الجفوة التي لم تصلحها حوادث الأيام بعد ذلك.

ولا منافسة بين علي وأبنائه في حياته ولا بعد مماته، وإنما المنافسة بينه وبين أعمامه وبني عمومته.

إنما المنافسة بين اثنين أحدهما ابن عم للنبي هو أبو طالب، ، والآخر ابن عم للنبي هو العباس.

وأي فائدة كبرى كان يفيدها معاوية لو سمع من ابن عباس كلمة تفتح الباب للتفرقة بينه وبين سائر الهاشميين العلويين؟ أي فائدة كان يفيدها لو رأى من دهاء ابن عباس أنه يمهد لنفسه عند السلطان الجديد ولا يزيد على التشفع لغيره من سائر أهل البيت؟

إن غرابة هذه القصة عي التي ترجحها وتضعف الشك فيها، فإنها إن وقعت لن تقع إلا على غرابتها.

إنها غريبة من معاوية إلا أن تكون مقصودة لغير ظاهرها مع رجل له ظاهر وباطن يستطلع بهذه المفاجئة ولا يستطلع بغيرها، وقد يبدو منه ما تنكشف به جلية الموقف بينه وبين سائر بني هاشم، وكل بني هاشم غير عبد الله بن عباس فظاهرهم وباطنهم لا يختلفان إذا سمعوا مثل ذلك النذير.

هذا أو تكون نفثة من نفثات الكظم تنطلق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفي باللسان ما لا يضمره الجنان.

***

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعا لم تكن في ذلك العصر مما يستكثر في مناسباتها، وقد سمعها معاوية –أو سمعها جلساؤه معه –متوقعة مستثارة، ولم يتعود الناس يومئذ

---

[1] يسبر غورًا: سبر الجرح ونحوه: قاسه وامتحن غوره ليعرف مقداره، والأمر اختبره، والغور: العمق.

أبهة الملك وطاعة العبيد للسادة، ولم يتعود الأمير كذلك أن يسوم الناس سكوتا في موضع القول، وإغضاء في موضع الأنفة، وإنما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين في حق الطاعة، ولم يعد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب إنسانا بما يسوءه ثم يستكثر عليه أن يجيبه بمثل خطابه، فهذه «هرقلية» لن يتعودها الرعاة ولا الرعايا، ولم يكن في طاقة معاوية أن يروض رعايه عليها دفعة واحدة، فإذا تمهل فيها آونة بعد آونة فإنما يكون التمهيل بمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار.

ومن الوقائع التي رويت عنه، وقائع يلتبس فيها الحلم وبطء الغضب وطول الروية والأناة، ومنها ما يتلقى فيها الإساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الإجابة عنها بما يروي فيه النظر ويرتضيه.

عدا عبيد لمعاية على أرض ابن الزبير فكتب إليه ابن الزبير: « أما بعد يا معاوية، إن لم تمنع عبيدك من دخول أرضي وإلا كان لي ولك شأن».

وقبل: إن معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله: ما ترى؟ فقال له يزيد: لتنفذن إليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه.

فقال: بل عندي يا بني خير من ذلك وكتب إلى ابن الزبير: « وفقت على كتابك يا ابن حواري[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم، وساءني والله ما ساءك.

والدنيا هينة عندي في جنب رضاك، وقد كتبت على نفسي رقيما[2] بالأرض والعبيد وأشهد على ما فيه، ولتضف الأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبيدك والسلام».

فجأءه الجواب من ابن الزبير يقول فيه: « وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام».

وأطلع معاوية ابنه على الكتاب الثاني كما أطلعه على الكتاب الأول فأسفر[3] وجهه، وأبوه يقول: إذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء.

---

[1] حواري: أحد أنصار النبي.

[2] رقيمًا: كتاباً، ورقم الكتاب: كتبه.

[3] أسفر: أسفر وجه فلان حسناً: أشرق.

ومن الإساءات ما لا خطر له؛ لأنه من غير ذي شأن كشأن ابن الزبير، ولكنه يغضب العربي؛ لأنه يمس الحرمات كتشبيب عبد الله بن حسان برملة بنت معاوية إذا قال:

رمل.. عل تذكرين يوم غزال إذا قطعنا مسيرنا بالتمني

أذ تقولين: عمرك الله عل شـ ـيء، وإن جل، سوف يسليك عني؟

فغضب يزيد وأغرى كعب بن جعيا بهجاء الأنصار فأبى، ودله على الأخطل فنظم قصيدته التي يقول منها:

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

وأوشكت أن تكون فتنة ؛ إذ دخل النعمان بن بشير على معاوية محنقا وحسر على رأسه وهو يقول له: هل ترى يا معاوية لؤمًا؟ .. فقال: بل كرما وخيرا، فما بالك؟ .. فأعاد عليه أبيات الأخطل وتوعده بأبيات يقول منها:

معاوي إلا تعطنا الحق تعترف لحي الإذد مشدودا عليها العمائم

أيشتمنا عبد الأراقم[1] ضلة وماذا الذي يجدي عليك الأراقم

فما لي ثأر دون قطع لسانه فدونك من يرضيه عنك الدراهم

وتنم القصة بما قبل عن طلب معاوية للأخطل وتهديده إياه بقطع لسانه لو شفاعة يزيد الذي أغراه بالهجاء.

وفي رواية من هذه الروايات الكثيرة أن التشبيب إنما كان بأخت معاوية وأن يزيد دخل على أبيه فذكر له قول عبد الرحمن بن حسان:

طال ليلي وبت كالمجنون وملك الثواء[2] في جيرون

فقال له: وما علينا يا بني من طول ليله وحزنه؟ أبعده الله.

قال يزيد: وإنه ليقول:

فلذاك اغتربت بالشام حتى ظن أهلي مرجمات الظنون

---

[1] الأراقم: جمع أرقم وهو أخبث الحيات، والأراقم: حي من بني تغلب.

[2] الثواء: الإقامة.

فقال أبواه: وما علينا من ظن أهله؟

قال يزيد: وإنه ليقول:

هي زهراء مثل لؤلؤة الغو اص ميزت من جوهر مكنوند

فقال معاوية: صدق يا بني ، هي كلك.

قال يزيد: وإنه ليقول:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضر أء تمشي في مرمر مسنون

عن يساري إذا دخلت إليها وإذا ما تركتها عن يميني

فضحك معاوية وقال: ولا كل ذلك.. ثم حذر ابنه قائلا: ليس يجب القتل في هذا ولكننا نكفه بالصلة..

وزعموا في بعض روايات القصتين أن معاوية أرسل في طلب الشاعر وأبلغه أن هندا أخت رملة تعتب عليه؛ لأنه لا يسويها بأختها، وأراد بذاك أن يشبب الشاعر بهند فيعلم الناس أنه كاذب في كل ما نظم، وأنها أقوايل الشعراء الذي يقولون ما لا يفعلون.

والثابت من كل هذا الحديث بيت الأخطل في هجاء الأنصار، وربما ثبت مثله هجاء الأراقم قوم الأخطل من تغلب، فإذا كان قد دخل في الأمر تشبيب بأخت يزيد أو بعمته؛ فربما هون خطره غضب الأنصار وغضب المسلمين جميعا أن يهجو أنصار النبي شاعر من غير المسلمين، ولو أن المسألة خلصت من هذا الحرج؛ لما جاز قتل الشاعر من جراء لغوه كما قال معاوية، فما كان سفك الدم لمثل هذا القول بالأمر المستباح في صدر الإسلام، وقد مضى بعد هذا الجيل أجيال على سنة الملك العضوض[1] ولم يخطر للمهدي في دولة بني العباس أن يقتل بشارا وهو القائل في ابي جعفر المنصور:

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم

كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

***

بل هو الذي أفحش في هجاء المهدي وهجاء نساء بيته، وذهب يخبط بالمهايجة

[1] العضوض: الملك المعتسف الظالم.

والتحريض بين بني أمية وبني العباس، وما استباح المهدي عقابه إلا بتهمة الزندقة والإلحاد، وما أمر إلا بأن يضرب ضرب التلف ليقال في ذلك: إنه إنما أريد به الضرب فمات.

ففي وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الإنسانية - أي فهم الإنسان - لا جدوى من التعويل على ألفاظ الصفات، ولابد من الرجوع إلى الوقائع ومالها من الأثر الطبيعي في الضمير وما ينم عليه هذا الأثر من خليقة نفسية أو ملكة عقلية.

وهذه الوقائع التي رويت عن معاوية تبدى لنا منه صفة لا شك فيها وهي طول الأناة وبطء الغضب، وليست هي بالصفة التي ترادف الحلم كما يفهم لأول وهلة، إذ كثيرا ما يكون بطء الغضب شيئا "سلبيا" يدل على امتناع الغضب طبعا أو قلة الاستعداد له في الخلقة، ولا تكون الفضيلة أبدا "شيئا سلبيا" قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى.

فليس معنى الشجاعة -مثلا- تجرد الطبع من الشعور بالخوف لأن الإنسان الذي يقدم على الخطر وهو لا يشعر به، يندفع اندفاع الجماد ولا فضل له في اندفاع لا يكلفه الغلبة على خوف يساوره في ضميره.

***

وليس معنى الكرم تجرج الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المنحة المبذولة؛ لأن من يتصرف في شيء لا قيمة له عنده، كمن يتصرف في التراب والهواء وما إليهما من مبذول العطاء.

وليس معنى الهفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات؛ لأن من لا يشتهي لا يطلب ولا يقاوم الإغراء ولا تحسب له عفة.

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب، لأن التجرد من هذا الشعور قد يأتي من بلادة في الطبع وركود في حركة النفس وما مقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال.

وإنما الحلم أن يغضب الإنسان وأن يحكم غضبه بإرادته؛ إيثارا لأمر يفوق الغضب في قيم الأخلاق..

فمن الحلم أن يأنف الإنسان من الاستسلام للغضب؛ لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها إساءة المسيء.

ومن العلم أنيصفح الإنسان عن الإساءة؛ إيثارا للخير وعطفا على المسيء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع في حق أبيه.

ومن الحلم أن يقمع الإنسان غضبه؛ لأنه يملك زمام نفسه ويوازن بين العواقب فيختار أسلمها للناس عامة، وإن يكن أسلمها له في ذات شأنه وشئون ذويه..

ولابد من التفرقة هنا بين الحلم إيثارا للنفع القومي، وبين الحلم إيثارا للسلامة وعملا بطبيعة" الأنانية وحب الذات".

فليس من الحلم أن يضرب الضعيف فلا يرد الضربة بمثلها، لأنه يعلم أنه سيتلقى أضعافها ممن هو أقدر منه وأقوى على إيذائه، وإنما يقال عن هذا: إنه جبن أو رضا من المعتدي عليه بأهون الشرين.

ولا يكون الحلم أبدا عجزا عن مجازاة الغضب أو امتناعا للشعور به، لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع، ولكنها تقوم على إرادة تملك الاختيار بين الخطتين..

***

وجملة القول في هذه الصفة أن الحليم هو الذي يملك الغضب ولا يملكه الغضب، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عليه؛ كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه، وكلما ارتفع السبب الذي من أجله يتغلب الحليم على غضبه كان ذلك أرفع لقدره وأرجح لوزنه في ميزان الفضيلة، فمن يحسم الغضب حرصا على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصا على منافعه العاجلة أو الآجلة، ومن يحسم الغضب لأنه يشمل الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب؛ لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره.

ومن كلام حكماء العرب وبلغائهم نستشف[1] فطنتهم لحقيقة هذه الفضيلة، فهي فضيلة المريد المختار المالك لزمام الأمرين، كما قال ابن خليفة مولى قيس ابن ثعلبة يمدح

[1] نستشف: استشف الشيء: نظر منه إلى ما وراءه، واستشف الكتاب: تأمل ما فيه.

قوما من آل شيبان:

عليهم وقــار الحـلم حتى كأنهمـا
وليدهم مــن أجـل هيبته كهـل
إن استجهلوا لم يعزب[1] الحلم عنهم
وإن آثروا أن يجهلوا عظم الجهل

.أو كما قال النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر[2] تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم متى ما أورد الأمر أصدرا

ومن كلام الأحنف بن قيس - أحد مشاهيرهم بالحلم :-" رب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه ".

وكان من حلمه أن يصفح عن المسيئ وإن طن به الذل ويقول: « ما أحب أن لي بنصيبي من الذل حمر النعم[3] " فلما قيل له: كيف وأنت أعز العرب؟ .. قال: "إن الناس يرون الحلم ذُلا الإحسان".

وسألوه: ما الحلم؟ .. فقال: " قول إن لم يكون فعل، وصمت إن ضر قول"-

***

وروي العقد الفريد أن هشام بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان: بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ . فقال: إن شئت أخبرتك بخلة، وإن شئت بخلتين، وإن شئت بثلاث.

قال: فما الخلة؟

قال: كان أقوى الناس على نفسه.

ثم قال عن الخلتين: إنه كان موقي الشر ملقي الخير، وعن الثلاث: إنه كان يجهل ولا يبغي ولا يبخل.

---

[1] يعزب: عزب الشيء: بعد وغاب.

[2] بوادر: البادرة: ما يبدر من حدة الإنسان في الغضب.

[3] النعم: بفتحتين: المال الراعي ويقع على ذوات الخف والظلف. وحمر النعم: أجودها.

وأستاذ الأحنف في الحلم قيس بن عاصم المنقري كان مشهورا بالإقدام كشهرته بالحلم والإغضاء عن الذنب كبيرة وصغيرة، وبلغ من حلمه أنه صفح عن ابن أخيه الذي قتل ابنه، وقد أوثقه من ود أن يبطش به لساعته، فما زاد على أن قال له مؤنبا: « بئس ما فعلت. نقصت عددك، وخنت عشيرتك، وأسقطت مروءتك وأشمت عدوك، وأسأت قومك.

.. وانت الذي كنا نرجو لعظائم الأمور» ثم واسى زوجته أم القتيل وأجزل لها الدية من ماله، وحسم بذلك شرا مستطيرا في القبيلة لا يجعله عنده أخطر من شر الثكل إلا الحلم الراجح، والقلب الكبير، والنظر البعيد.

***

ويمر بنا مثل من الأمثلة الصالحة لتقويم الروايات ورواتها بصدد الأخبار التي نقلها صاحب العقد الفريد عن الحلم والحلماء، ومنهم الأحنف ومعاوية.

فابن عبد ربع ينقل لنا أن الأحنف سئل؛ من أحلم.. أنت أم معاوية؟ فقال: تالله ما رأيت أجهل منكم. إن معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أثاس عليه أو أدانيه؟

فإذا سمع السامع المتعجل هذا فحرى أن يتقرر لديه رجحان معاوية في الحلم بشهادة الرجل الذي يضرب به المثل في حلمه، وأي شهادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة !

وما هي إلا معاودة لحظة في السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم أن السؤال كان لا يحتمل جوابا غير ذلك الجواب، لو أنه سؤال ما كان ينبغي أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله أن يقول له: بل أنا أحلم من معاوية ..!وقد كان الأحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره، وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد: لست حليما ولكنني أتحالم.

***

ولو أن الأحنف قال برأيه ذاك اعتقادا ولم يقل به تواضعا أو تحالما: لكن على خطأ

لا يخفى عند النظرة اليسيرة في أسباب تفضيله معاوية على نفسه.. فما هي القدرة التي كانت مطلوبة من الأحنف في مقامه؟ لقد كان يكفيه أن يقدر على كلمة لا يعجز عنها أحد، وكان يكفيه أن يمسك تلك الكلمة فيكون أقوى الناس على نفسه كما وصفه خالد بن صفوان، وأما الملوك فالمطلوب منهم أعمال لا يقدرون عليها في كل وقت ولا مع كل أحد، إلا أن يكون المقصود بالقدرة طياشة جامحة تخبط ما تشاء بغير مبالاة، وليس قصارى الحليم أنه غير الطياش وغير الخابط الذي لا ينظر إلى عقباه.

ويوزن الراوي في روايته هذه ، فلا نجهل موقع الهوى فيما يشاع عن حلم معاوية، ويسر انتقال الإشاعة من قائل إلى قائل ومن ناقل إلى ناقل. فما في هوى الأندلسيين لبني أمية من خفاء ودولتهم الأولى أموية في أساسها، وابن عبد ربه نفسه حفيد لسالم القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، وأقل ما يقال في نقل ابن عد ربه لكلمة الأحنف أنها تزكية لرأس الدولة الأموية رحب بها ووافقت هواه.

ونعود إلى تاريخ معاوية فيما قاله وفيما سكت عن قوله منذ نشأته الأولى فلا نجد فيه أثرا واحدا لطبيعة الغضب التي تمتحن بها فضيلة الحلم كما امتحنت في نفس الرجل الحزين في صدمة الشكل وهو المقتحم المغوار في الجاهلية والإسلام.

ونخال أن التاريخ لم يحفظ لنا غير حادث واحد يفتح لنا مغاليق هذه الخليقة في طوية الرجل، فإنها في الحق لغز لا يكفي لحله مجرد القول بالحلم أو الغضب المكبوت أو بطول الأناة، وإنما يحله علم المفس الحديث على النحو الوحيد الذي يعطينا منه معنى مفهوما على وجه من الوجوه.

ذلك الحادث هو مقتل حجر بن عدي وأصحابه لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة آجلة، فما كان له من خطب غير أنه واحد من أولئك الذين قال فيهم معاوية: إنه لا يحول بينهم وبين ألسنتهم؛ لأنهم لا يحولون بين بني أمية وملكهم، فإن كان لابد من إسكاته أن يحملوه إلى مكان لا يلقي فيه من يستمع إليه.

***

قال ابن الأثير بعد أقاويل شتى: " إن ويادا خطب يوم جمعة فأطال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر بن عدي: الصلاة ..!فمضى في خطبته.. فقال: الصلاة !فمضى في خطبته.. فلما خشي حجر بن عدي فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من حصى، وقام إلى الصلاة، وقام الناس معه، فلما رأى زياد ذلك نزل فصلى بالناس، وكتب إلى معاوية وكثر عليه، فكتب إليه معاوية ليشده بالحديد ويرسله إليه. فلما أراد أخذه قام قومه ليمنعوه، فقال حجر: لا، ولكن سمعا وطاعة. فشد في الحديد وحمل إلى معاوية، فلما دخل عليه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: .أأمير المؤمنين أنا؟ .. والله لا أقيلك[1] ولا أستقيلك[2] .. أخرجوه فاضربوا عنقه، فقال حجر للذين يلون أمره: دعوني حتى أصلي ركعتين، فقالوا: صل، فصلى ركعتين خفف فيهما، ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي أردت لأطلتهما، وقال لمن حضر من قومه: والله لا تطلقوا عني حديدا ولا تغسلوا عني دما. فإني لاق معاوية غدا في الجادة. وضربت عنقه».

ودهش الناس لهذه المقتلة الجزاف، واهتز لها العالم الإسلامي هزة عنيفة أورثته مبغضة لدولة بني أمية من تلك المبغضات التي كمنت وطالت حتى نسيت أسبابها وبقيت نوازعها، وظل شبح الشهيد الوقور يساور معاوية إلى يوم وفاته، فجاء في رواية ابن سيرين: " إن معاوية لما حضرته الوفاة، جعل يقول: يومي منك يا حجر طويل"

ولا يحاط بعوارض الفزع التي ألمت بالعالم الإسلامي من جراء هذه المقتلة الباغية، ولكنها قد تتمثل في عارض واحد يل على كثير. فإن الخبر الذي ذاع عن تسيير حجر وأصحابه إلى دمشق لم يكد يصل إلى السيدة عائشة بالحجاز حتى أوفدت عبد الرحمن بن الحارص يتشفع فيه، وفي صحبه، وهي لا تنسى أن أعوان معاوية قتلوا أخاها محمدًا شر قتلة. ولا يخفى عليها غلو حجر وأصحابه في حب علي وشعيته، وبينها وبين العلويين من الجفوة ما هو معلوم.

وقد فات معاوية كل عذر في هذه المقتلة حتى ما كان من عذر واه كعذر ابنه يزيد

---

[1] أقيلك: أقال لله عثرته: رفعه من سقطته.

[2] أستقيلك: استقال الرجل صاحبه: طلب إليه أن يقيله.

في مقتله الحسين، فإن يزد قد أحال الذنب على عبيد الله بن زياد، وانعكست الآية في أمر معاوية وحجر، فكان زياد هو الذي نفض يديه من وزر هؤلاء الشهداء وألقاه على مولاه، وضاق مولاه بانتحال المعذرة بعد حين، فكان جوابه لسائليه مما يخجل الطفل بين الصغار فضلا عن العاهل بين الساسة وفي ذمة التاريخ قال له عبد الرحمن بن الحارس: أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ .. فقال: حين غاب عني مثلك من حلماء قومي.. وحملني ابن سمية فاحتملت.. وسألته السيدة عائشة تقول: لولا أنا لم نغير شيئا إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه، لغيرنا مقتل حجر.. أما والله إن كان لمسلما حجاجا معتمرا. وكان الحسن البصري الزاهد المعروف يقول: أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه ألا واحدة؛ لكانت موبقة[1]، ثم أحصاها وذكر منها مقتل حجر: « فيا ويلا له من حجر، يا ويلا له من حجر، يا ويلا له من أصحاب حجر».

وفي رثاء حجر تقول هند بنت زيد الأنصارية:

تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق[2] والسدير

فإن يهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هلك يصير

***

ومعذرة معاوية هذه خليقة أن تدعونا إلى تصديق الوصية التي أوصاه بها أبوه حين سافر إلى الشام. فقد يستكثر على معاوية أن يؤمر بمراجعة أبيه في كل كبيرة وصغيرة قبل أن حدث بينه وبين أحد أمرًا في خصومة أو قطيعة، وقد يستكثر عليه أن يصفعه صافع فلا يقتص لنفسه حتى يسأل أباه ويترقب الجواب منه، فإذا كان الرجل يرتضي من معاذيره أن يقوده ابن سمية فينقاد؛ لأنه لم يجد حوله رجلا رشيدا، فليس بالكثير أن يؤمر بمراجعة أبيه في شتم شاتم وضرب ضارب، وهو في مقتبل الشباب قبل الولاية وقبل الخلافة.

ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان في حكم القاصر في شبابه وكهولته، ولكننا

---

[1] موبقة: مهلكة.

[2] الخورنق: بفتحتين: اسم قصر بالعراق بناه النعمان الأكبر

نفهم أن أباه كان يعرفه، وكان يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها.

حدث صاحب العقد الفريد في الجزء الأول عن أبي حاتم عن العتبي قال: قدم معاوية من الشام وعمر بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب، فأقعدهما بين يديه وجعل

يسائلهما عن أعمالهما إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوة فقال له معاوية: أعملي تعيب وإليَّ تقصد؟ !هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك. قال عمرو: فعلمت أنه بعملي أبصر مني بعمله، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره، فأردت أن أفعل شيئا أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدي فلطمت معاوية. فقال معاوية: إن أبي أمرني ألا أقضي أمرا دونه فأرسل عمر إلى أبي سفيان، فلما أتاه ألقى له وسادة، وقال: قال رسول الله: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، ثم قص عله ما جرى بين عمرو ومعاوية، فقال: لهذا بعثت إليَّ؟ أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير. وقد وهبت ذلك له ".

وصاحب العقد -على هواه الأموي - سوق هذه القصة في ساق الثناء، ولسنا نفهم من ذلك أن أباه كان يعرف وكان يُعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها، وأنه إذا غضب يتغاضب بالرأي والاختيار فيخطئه التقدير.

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة في الطبائع التي تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع، ولكنها إذا تركت بلا صدمة ترددها لم تعرف حدود الارتداد ولا تأبى أن تستسلم للاندفاع.

تلك الظاهرة من مورثات طبيعة المطاردة في الإنسان وفي الحيوان أو السبع من قبله.. فقد علم المراقبون لطبائع الحيوان أن المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة، ولا تقوم على حركة واحدة. فإذا لمح الحيوان من خصمه أنه يجفل منه أخذ في الهجوم، وإذا عدا خصمه أمامه أخذ في العدو وراءه، وإذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تماد في صرعه وافتراسه، ولعله لو وقف أمامه رابط الجأش من مبدأ الأمر لم تتنبه فيه حركة الهجوم،

فحركة المطاردة، فحركة الحاق والافتراس. وعرف صادة الأسود -وهي أخطر السباع - إنها تتردد إذا واجهها الإنسان ثابت النظر، راسخ القدمين.

وقد دخل حجر علي معاوية، ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر فانتباه لواجب الحلم والأناة، فلما دخل حجر محييا له بالإمارة وزال الحاجز الأول؛ زالت معه الحواجز الأخريات، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف.

ونظن أن هذه الخليقة قد أوشكت أن تبرز في طوية معاوية من وعيه الباطن إلى وعيه الظاهر، ومن ذلك قوله: « إذا شد الناس شعرة أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها» أو قوله: « إذا طرتم وقعنا، وإذا وقعتم طرنا»، أو قوله لزياد: «كن أنت للشدة ولأكن أنا للين».

فهو يتلقى وحي طبيعته من الصدمة التي تلقاه، فإن لم تكن صدمة فهناك الحيرة التي لا تخرجه منها طبيعة تلوذ بالغضب على قدرة فلا تقف حيث ينبغي لها الوقوف، ولو كان للغضب عنده أثره المطبوع لانتظر الناس حلمه حيث يغضبون، وانتظروا غضبه حيث يحلمون. وكثير من أمثال هذه الخليقة تلقاه بيننا كل يوم فيقول القائل عن الرج من أصحابها لو أنك شددت عليه لأرضاك وحمدت أثر الشدة عليه .!

ويستدعينا ختام هذا الفضل تفرقة أخرى كالتفرقة بين الحلم وامتناع الغضب، وهي التفرقة بين الطموح إلى الزعامة والصولة، والطموح إلى الشرف الاجتماعي والوجاهة السياسية.

فالطموح إلى الزعامة والصولة مزاج حيوي يدخل في تركب البنية، ويدفع صاحبه كما تدفعه وظائف الجسد، فلا يستريح أو يقود الأمم قيادة الزعامة ويصول بعظمة الرئاسة والعلو على الأقران والأتباع.

والطموح إلى الشرف الاجتماعي تقليد من تقاليد المجتمع يحرص عليه من توارثوه حرصهم على الحطام وبسطة العيش ووجاهة الأسرة والبيت، ويغلب عليه أن يكون تراثا متخلفا من الآباء للأبناء يغض من الأبناء أن يتخلوا عنه ويروا غيرهم في مكانه.

ولا يلزم من الطموح إلى الشرف الاجتماعي أن يكون صاحبه مطبوعا على الصولة والعلو وطلب الطاعة والخضوع، وقد يلجأ صاحبه إلى المداورة واللين والخضوع لهذا

والمصانعة لذاك، ليحفظ بالتراث الذي صار إليه أو يرجو أن يصير إليه.

***

ونحن في قرانا نشهد المثال على كل من النموذجين في كل قرية وكل إقليم. فبينا يستميت "بيت العمدة" في استبقاء وجاهته ويلين من أجل ذلك للحاكم وصاحب الأمر وأعوانه على المكانة الموروثة، ينهض رجل آخر مطبوع على الأنفة والصولة فيستطيل على تلك المكانة، وينازع في تلك الوجاهة، ولا يستريح إلا إذا أمر وتحدى وملك زمام العزة بالمقال والفعال.

وبنو أمية عامة، ومعاوية خاصة من أصحاب " المظهر الاجتماعي" وليس فيهم غير القليل النادر من أصحاب الطموح إلى الزعامة والصولة كما تكون في بنية المزاج وتركيب الخلق والجسد، وقد صبر معاوية على ألوان من الخضوع في طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس؛ لأنه يطلب تلك الوجاهة بتقليد وراثي ولا يطلبها بنزعة غلابة في الطبيعة والتكوين.

واحتاج أن يقول مرة كما جاء في الطبري مسندا إلى سعيد بن سويد: " ما تلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا. قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتامر عليكم ".

وهي قولة لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والزعامة؛ لأنهم لا يحتاجون إليها، ولكنه قالها لأنها جثمت على صدره لطول ما صبر على مجابهة هذا ومصانعة ذاك، وتذكير المذكرين إياه أنه لم يملكهم عنوة ولا فتحا، بل ملكهم المشارطة والاتفاق.. فنفس عن صدره بتلك الكلمة ولم يحدث من غيره أنه شعر بالحاجة إلى تنفيس كذلك التنفيس.

***

لقد كان في الرجل مشابهة للجمل الصبور ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور[1]-

كان يصفح لأنه لا يغضب، وكان يحمل على كاهله وفي طوايا نفسه ما ينوء[2] غيره

---

[1] الأسد الهصور: الأسد الذي يكسر عظام فريسته.

[2] ينوء: ناء الرجل بحمله نهض مثقلًا به، بجهد ومشقة، وتقول: ناء به الحمل، أي: أثقله.

بحمله، وكان يصبر الصبر الطويل على بلوغ الجاه حيث لا يطاق هذا الصبر مع نزوع الطبيعة السوارة[1] إلى الزعامة والصولة.

كان حلمه امتناع غضب، وكانت همته تقليد وراثة وحلية وجاهة.. وقد قال مرة أو مرات: « إن السلطان يغضب غضب الصبي ويأخذ أخذ الأسد".

ولكنه حين غضب غضبته الآبدة في مقتل حجر وصحبه لم يغضب غضب الصبي وحسب، بل التمس العذر، مجفلا من غضبته، فلم يفتح عليه بغير عذر الصبي بين يدي الفقيه.

[1] السوارة: الوثابة.